

فن التوقعات في العصر العباسي

التوقيع لغة:

التوقيع يطلق في اللغة على سقوط شيء، يُقال: وَقَعَ الشيءُ وَقُوعًا فهو واقعٌ، والواقعة: القيامة لأنها تقع بالخلق فتغشاهم. والْوَقْعَةُ: صدمة الحرب. والوقائع: منافع الماء المتفرقة، كأن الماء وقع فيها، ومواقع الغيث: مساقطه، والنسر الواقع، من وقع الطائر، ويراد أنه قد ضم جناحيه فكأنه واقع بالأرض، ومَوْقَعَةُ الطائر: موضعه الذي يقع عليه، وكَوَيْت البعير وقاع: دائرة واحدة يكوي بها بعض جلده أين كان، فكأنها وقعت به، ووَقَعَ فلانٌ في فلانٍ وأَوْقَعَ به

ويظهر (المعجم الوسيط) هذا المعنى وجاء فيه: "وَقَّع في الكتاب: أجمل بين تضاعيف سطورهِ مقاصد الحاجة وحذف الفضول، والتوقيع ما يعلقه الرئيس على كتاب أو طلب برأيه فيه".

قد سمي هذا الفن بالتوقيعات، نسبة إلى ما يوقعه الخليفة أو عماله على الرقاع والرسائل التي ترد حاضرة الخلافة، بطلب أو شكوى أو مظلمة، وقد عرفه العديد من العلماء قديما وحديثا، فمن القدامى نجد أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي (٥٢١هـ - ١١٢٧م) يعرفه: "وأما التوقيع، فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر ونهي، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه".

ومن الأدباء المعاصرين نجد الدكتور شوقي ضيف أنه يقدم تعريفها بأسلوب آخر سهل: "التوقيعات عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس ووزراءهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم، وحاكاهاهم خلفاء بني عباس ووزراءهم في هذا الصنيع، وكانت تشيع في الناس ويكتبها الكتاب

ويتحفظونها وظلامته، وقد سموها الشكاوى والظلمات بالقصص لما يحكي من قصة الشاكي وظلامته، وسموها بالرقاع تشبيها لها براقع الثياب"

والواقع أن التوقيعات في بنيتها الشكلية ترتبط باللغة العربية وإيجازها البليغ، فصفة الإيجاز كانت واضحة وبارزة في أقوال العرب في مختلف العصور، ولكن هذا الفن قد حافظ على ذلك الإيجاز حتى نجد الكتاب والبلغاء في العصر العباسي الذهبي يتنافسون في الإبداع فيه في قوالب من الإيجاز، وكانت توقيعات أسرة البرامكة وبني سهل مثل جعفر والفضل ابن يحيى بن خالد آية في البلاغة ولمعة في البيان، حتى تروج عند ناشئة الكتاب وطلاب الأدب، فأقبلوا عليها ينقلونها ويتبادلونها ويحفظونها وينسجون على منوالها، يقول ابن خلدون: "كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل: "إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار". وبلغ إعجاب جعفر بن يحيى بالتوقيعات أنه كان يوصي كتابه: "إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا".

التوقيعات في عصر صدر الإسلام:

التوقيعات عرفت في هذا العصر وبالتحديد في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كما عرفت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إبان فتوحاته الإسلامية نظرا لضرورة هذا الفن وملائمته لظروف المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت مع شيوع الكتابة وازدهارها بعد أن أقبل المسلمون على انتشار الإسلام في بقاع المعمورة وتعليمه وتعلمه. ثم توالى استخدام التوقيعات في عهد عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ويضاف إلى ذلك استخدام الكتابة في تحجير

الرسائل وتبليغ أوامر الخليفة وتوجيهاته إلى الولاة والقواد في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، وفي هذا العهد اكتسب مصطلح التوقيع معنا أدبيا وإداريا. ومن أمثله أن خالد بن الوليد أرسل خطابا من دومة الجندل، يطلب أمره في أمر العدو، فوقع إليه أبوبكر: ”أدُّ من الموت تُوهَّب لك الحياة” ، فهذا التوقيع تضمن أصل الكون لأن الحياة قائمة في الأصل على صراع بين الحياة والموت، وهو صراع أزلي لا ينقطع ولا ينتهي حتى يأتي أمر الله، ويفهم من هذا التوقيع أمران: الأول أن سيدنا أبابكر - رضي الله عنه - أراد بتوقيعه أن ينمي في نفوس المجاهدين حب الشهادة في سبيل الله، وفي سبيل نصرته الإسلام والمسلمين، مبينا أن في الشهادة حياة عظيمة لهم، فالموت بذلك بداية حياة، حياة لا موت بعده. والأمر الآخر أن في هذا التوقيع توجيه عسكري وسياسي مفاده أنك بمقدار ما تطلب العدو وتلاحقه تخرجه من مسرح العمليات، وبإخراجه تبقى أنت في ساحة الحياة. والأمر النهائي في هذا التوقيع أنه يتوفر فيه إيجاز قصر والذي يقصد به ما زاد معناه عن لفظه دون حذف أي لا يمكنك أن تسقط شيئا من ألفاظه.

ومثل هذا التوقيع نجد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الكوفة يستأذنه في بناء دار الإمارة، فوقع إليه: ”أبن ما يستر من الشمس ويكن من المطر” ، نجد في هذا التوقيع نوع لإيجاز وهو إيجاز حذف أي حذف شيء من الجملة أو العبارة، فالمحذوف هاهنا: ”أبن ما يستر من أشعة الشمس وحرها ويقي ويحمي من المطر، وهذا من أجل الاختصار والتخفيف”.

وكتب الحسين إلى علي رضي الله عنه في شيء من أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه،
فوقع: “رأي الشيخ خير من مشهد الغلام”.

وفي هذا التوقيع نجد أنه يدل على حكمة ونباهة صدق كلام الشيخ وأنه
أحسن وأفضل من رؤية الغلام، وهذا أيضا يعكس مكانة الشيخ الكبير وعظمته لما
له من خبرة وتجارب في الحياة، ويوجد فيه نوع الإيجاز وهو إيجاز قصر لأن معناه
أكثر من ألفاظه. ونجد في بعض توقيعاته مواضيع الإيجاز إلى حد بليغ، فقد وقع
علي بن أبي طالب في كتاب الحصين بن المنذر إليه يذكر أن السيف قد أكثر في
ربيعة: “بقية السيف أنمى عددا” وكذا وقع في كتاب صعصعة بن صوحان يسأله
في شيء: “قيمة كل امرئ ما يحسن”.

التوقيعات في العصر الأموي:

في العصر الأموي أصبحت التوقيعات امتدادا طبيعيا لما كانت عليه في عصر
صدر الإسلام بعد أن عرفت واستخدمت كثيرا من حيث اعتاد كل خليفة أموي
كاتبا أن يوقع على الرسائل التي ترد إليه بعد أن يطلع عليها ويعرف مضمونها. نجد
في هذا العصر أن الخلفاء وعامتهم يتبعون طريقة الإيجاز في كلامهم ويسلكون
مسلك آبائهم في التعبير عما في نفوسهم بكلمات متوازنة وألفاظ متناسبة، فكانوا
يقدمون ملاحظاتهم ونقاشاتهم على الرسائل بإيجاز بليغ ويختارون الألفاظ المتناسبة
التي تؤدي إلى المعنى المراد دون لبس أو غموض وتكون واضحة الدلالة على المعنى
حتى تتحقق الغاية المنشود من التوقيعات. هناك أمثلة كثيرة لتوقيعات الخلفاء
الأمويين توفر فيها مواضيع الإيجاز والبلاغة أذكر بعضها منها:

كتب عبد الله بن عامر إلى معاوية بن سفيان - رضي الله عنه - في أمر عاتبه فيه، فوقع في أسفل كتابه "بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الإسلام، فأنت تراه"، ووقع مرة أخرى في كتابه حينما سأله أن يقطعه مالا بالطائف: "عش رجباً تر عجباً".

ففي هذين التوقيعين نجد في أوله إيجاز قصر وفي الثاني إيجاز حذف ومقصوده ها هنا عش رجباً بعد رجب أي سنة بعد سنة ترى أشياء عديدة وغريبة، وهناك تغيرات من فصل أو شهر إلى آخر، فتم الحذف هنا من أجل تجنب التكرار لكي يكون التوقيع أبلغ وأفصح وأكثر تأثيراً في المتلقي.

ومن أمثلة الإيجاز في التوقيعات في هذا العصر نجد أن عامل حمص كتب إلى عمر بن عبد العزيز يخبره أنها احتاجت إلى حصن فوق: "حصنها بالعدل والسلام"، وله توقيعات كثيرة تلمح فيها سمات الإيجاز والبلاغة إلى حد كبير نذكر بعضها منها على سبيل المثال، وقع عمر بن عبد العزيز في قصة متظلم: "العدل أمامك"، وكذا وقع في رقعة محبوس: "تب تطلق"، ووقع مرة في رقعة رجل شكا أهل بيته: "أنتما في الحق سيان". ووقع هشام بن عبد الملك في قصة متظلم: "أَتَاكَ الْعَوْتُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، وَحَلَّ بِكَ النِّكَالُ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَتَقَدَّمْ أَوْ تَأَخَّرْ". ووقع يزيد بن معاوية في كتاب مسلم بن زياد عامله على خراسان وقد استبطأه في الخراج: "قليل العتاب يحكم مرائر الأسباب، وكثيره يقطع أواخي الانتساب".

ووقع عبد الملك بن مروان حينما كتب إليه الحجاج بن يوسف يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشrafهم، فوقع له: "إن من يمن السائس أن يأتلف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون".

ووقع آخر الخليفة الأموي مروان بن محمد في جواب أبيات نصر بن سيار إذ كتب إليه:

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
“الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلؤل”.

فكتب نصر: الثؤلؤل قد امتدت أغصانه، وعظمت نكايته.
فوقع إليه: “يداك أوكتا وفوك نفخ”.

علاوة على ذلك أنهم كانوا يستخدمون كثيرا في توقيعاتهم آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية مما يغنيهم عن تكلف الإنشاء والنظم والرد، فيأتي التوقيع وافيا كافيا يصل وجه المطلوب تماما، لأن للقرآن الكريم والحديث الشريف أثر كبير في أساليبهم، فهما مثال البيان والفصاحة لدى الخلفاء والكتاب عامة.

التوقيع في العصر العباسي:

اتصلت في هذا العصر الذهبي تلك الدلالة التي شاعت في العصر الأموي ولكن أضيفت إليها دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية السائدة في العصر العباسي، حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسيم التي يصدرها السلطان أو الملك لتعيين وال أو أمير أو وزير أو قاض أو معلم. وامتازت مثل هذه التوقيعات بطولها والإسهاب في ذكر الحثيات والأسباب المسوغة للتعيين حتى تجاوز بعضها أربع صفحات، ولكن التوقيعات بهذا المفهوم لا تعد توقيعات أدبية بل تعدها من باب الكتابة الديوانية والوثائق التاريخية.

ثم تحول معنى التوقيعات إلى علامة اسم السلطان خاصة التي تذيّل بها الأوامر والمراسيم والصكوك كالإمضاء عندنا. ثم اقتصر معناها فأصبحت تدل على تأشيرة الاسم وهي كتابة بتلك الهيئة الخاصة.

وفي الواقع أن التوقيعات الأدبية لم يكتب لها حظ من الذيوع والانتشار إلا في هذا العصر لأن الكتابة الفنية قد شاعت وانتشرت وتعددت أغراضها وأسلوبها، ففي هذا العصر الذهبي ازدهرت التوقيعات وأنشئ لها ديوان خاص سمي بديوان التوقيعات وعين فيه كبار الكتاب والأدباء البارعون.

لقد أسهمت التوقيعات منذ بدايتها الأولى في توجيه السياسة العامة للدولة الإسلامية في عصر صدر الإسلام ودولة بني أمية، ولكن عندما جاء الأمر إلى بني العباس وتستقر أمور الدولة في القرن الثالث الهجري ونزعوا إلى الترف والعيش الرغيد وزاد اختلاطهم بالفرس أخذوا يتأثّقون ويطيّلون في الكتابة الفنية حتى خرجوا عن أساليب القدماء ومالوا إلى السجع وسائر ألوان البديع والمعاني يقول جرجي زيدان: “أن لكل عصر إمام في إنشاء المراسلات كعبد الحميد وابن المقفع في العصر العباسي الأول، والجاحظ في العصر الثاني، وابن العميد في العصر الثالث، ويؤكد ما يراه غيره أن الرخاء يدعوا إلى التأنق، فتطرق ذلك إلى إنشاءهم، فصاروا يتأثّقون فيه كما يتأثّقون بلباسهم وطعامهم وأثاثهم، فأطالوا العبارة وتوسعوا في التثنيق”.

هناك عديد من التوقيعات لخلفاء العباسيين ووزرائهم نجد فيها الإيجاز والبلاغة أو نوعاً من كليهما، نذكر هنا بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر فقد وقع أبو العباس السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: “من صبر في الشدة شارك في النعمة. ثم أمر بأرزاقهم”.

يظهر من توقيعه أنه أراد أن الصبر في الشدائد والآلام يعطي الفرح والسرور في الرخاء والعيش، وكذلك نرى هنا الشدة التي تصارع النعمة والصبر على المعاناة والتحلي بالعزيمة والجلد يصطدم مع الرخاء ليتولد عنه قيام شخصية صلبة متينة.

قد برز كثير من توقيعات بني العباس يطبع عليها سمة الإيجاز والبيان والبديع، فقد وقع أبو جعفر المنصور إلى عامل مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: “طَهَّرَ عسكرك من الفساد، يُعْطِكَ النيلُ القيَّادَ”، فيظهر من توقيعه أنه أمر عامله على مصر أن يزيل الفسق والفجور من جنوده، لأن المعاصي والذنوب يمنع الرحمة والفضل، فبدأ أنه وجه عامله إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهكذا وقع هارون الرشيد في حادثة البرامكة: “أُنْبِتَتْهُ الطاعة، وحصدته المعصية”. يبرز من توقيعه أنه شبه البرامكة بالبذور التي تنمو وترعرع، ثم شبههم وقد نكبوا بسبب تمردهم وخيانتهم بالزروع التي تحصد، ثم حذف المشبه به في كل من الصورتين، وأبقى في الكلام ما يدل عليه وهو “أُنْبِتَتْ وحصدت” وهما استعارتان مكنتان، وسر جمالهما أنهما يظهران أثر الطاعة وأثر المعصية في صورة مادية ملموسة، هي صورة البذور وهي تنمو، والزروع وهي تحصد.

وكذا وقع هارون الرشيد إلى صاحب السند إذ ظهرت العصبية: “كل من دعا إلى الجاهلية تعجّل إلى المنية”. ووقع في قصة محبوس: “من لجأ إلى الله نجأ”. ووقع إلى صاحب خراسان: “داوِ جُرْحَكَ لا يَتَسَع”. نجد في هذا التوقيع إيجاز قصر وفيه تلميح إلى أن يقوم ما اعوج من حكمه قبل أن يؤدي اعوجاجه إلى عزله فهي عبارة في قمة الروعة.

ووقع المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جاءه: “أنا ساهر وأنت نائم”، ففي هذا التوقيع نجد أنه يقارن بين حالتين متناقضتين:

أنا — أنت

ساهر — نائم

فهذا التوقيع يصور تصويراً دقيقاً للصراع القائم في نفوس بعض الحكام والولاة، وهذا الأضداد في الجمل يتشكل نوعاً من الطباق وهو المقابلة.

ووقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: “يا عمرو، عمّر نعمتك بالعدل، فإن الجور يهدمها”. ووقع إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: “ليس من المروءة أن تكون آنتك من ذهب وفضة، وغريمك خاوٍ وجارك طاوٍ”. يظهر من جميع هذه التوقيعات للمأمون أنها آية في الإيجاز والبلاغة.

ووقع زياد بن أبيه في قصة قوم رفعوا على عامل ربيعة: “من أماله الباطل قوّمه الحق”. ووقع في قصة سارق: “القطع جزاؤك”، ووقع أيضاً في قصة متظلم: “أنا معك” ومرة وقع: “الحق يسعك” ومرة وقع: “كفيت”، ووقع في قصة رجل جرح: “الجروح قصاص”، ووقع أيضاً في قصة محبوس: “التائب من الذنب كما لا ذنب له”.

ووقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس: “العدل يُوبقه، والتوبة تطلّقه”. ومرة أخرى وقع: “الجناية حبسته، والتوبة تطلّقه”. ووقع أيضاً في قصة متنصح: “بعض الصدق قبيح”. ووقع أيضاً في رجل شكّا بعض عماله: “قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت”. ووقع إلى قوم: “عين الخليفة تكلؤكم ونظره يعمكم”. ووقع في قصة مستمنح، قد كان وصله مرارا: “دع الضّرْع يدُرْ لغيرك كما دَرَّ لك”.

ووقع الفضل بن سهل السرخسي إلى حاجبه: “تمهّل وتسهّل” ، وإلى صاحب الشرطة: “ترقّق تُوقّق”. ووقع أيضاً في أمرٍ قاتل شهد عليه العدو فشفع فيه: “كتاب الله أحق أن يُتبع”.

وانطلاقاً من هذه الشواهد يظهر أن التوقيع فن أدبي راق وبليغ، وأسلوبه أسلوب سهل ممتنع مصموم بالإحساس، وكثيراً ما نجد في التوقيعات أنواعاً من البديع كالسجع والطباق والمقابلة والجناس. وأما فيما يخص الإيجاز فإنه يتنوع بين إيجاز القصر وإيجاز الحذف ولعل الغالب في التوقيعات هو إيجاز القصر الذي يطلق عليه اسم إيجاز البلاغة، فإيجاز القصر يتردد كثيراً في هذا الفن، ورغم اقتصار العبارة فيه على ألفاظ قليلة إلا أنه تحمل معاني كثيرة. وعليه فإن علاقة بين الإيجاز وفن التوقيع علاقة وطيدة، فهذا الفن في معظم مضامينه، كما سبقت وأن أشرت إلى ذلك، تتمثل في الاستعطاف وشكوى الحال والاعتذار والعتاب والشكر على النعم. وهذه المواضيع ما يستحسن فيه الإيجاز لتكون أكثر تعبيراً وتأثيراً في ذهن السامع.

كما عرفنا أن التوقيعات الأدبية ربما تكون مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية وهما مصدر من مصادر الإيجاز والبلاغة. وكان التوقيع في حد ذاته تعد أدبياً مؤجزاً يتضمن الرأي أو ما يجب إجراؤه تجاه الولاة أو الرعايا ومصالحهم وأمورهم. وكان ذلك كله ثروة لا تقدر بثمن في بناء الدولة وسياسة الرعية، وإغناء التاريخ بالنافع المفيد، وإثراء الأدب والفكر، وهذا ما أتاح للأدب العربي أن يظفر بعدد من التعبيرات الأدبية الراقية وألوان من الكتابة الأدبية الرفيعة.